

## سُورَةُ اِبْرَاهِيْمَ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ .

﴿الرَّكَتَبُ﴾ أي السورة المسماة بـ: ﴿الر﴾ كتاب عظيم ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، ومخاطبته ﷺ مع إسناد الإخراج إليه في قوله: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا يخفى من التفخيم والتعظيم، والمراد من الناس جميعهم، أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة من عقائد الكفر والضلال، إلى الحق المؤسس على التوحيد، الذي هو نور بحت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، وفيه استعارة تمثيلية، بتصوير الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والمنغمس في ظلمة الكفر والضلال لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان، إلا بتفضل الله تعالى بإرسال الرسل الكرام ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ تخصيص الوصفين بالذكر، للترغيب في سلوكه، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة، وللتنبيه على أنه لا يذلُّ سالكه، ولا يخيب سائله ﴿الحميد﴾ بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباده له أبداً.

﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ  
 مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ اللَّهُ ﴾ عطف بيان للعزیز لاختصاصه بالمعبود الحق، لأنه أجري مجرى أسماء الأعلام لغلبته، ثم لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين علمٌ لا كالعلم ﴿ الَّذِي لَهُ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما وجد فيهما، ففيه بيان فخامة الصراط، وإظهاره لتحتّم سلوكه على الناس قاطبة ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب، ولم يخرج من الظلمات إلى النور ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ معدّ لهم في الآخرة.

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ  
 اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ يختارونها عليها فالسين للطلب، والمحبة مجاز عن الاختيار، وقد جمع الله سبحانه هذين الوصفين، ليبين بذلك أن المحبة للدنيا وحده لا يكون مذموماً، إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فهذا المذموم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يصرفون الناس عن دين الله تعالى، والإيمان به ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ أي يبغون لها فحذف الجار أي يطلبون لها ﴿ عِوَجًا ﴾ أي زيفاً واعوجاجاً، أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل: هي سبيل زائفة وغير مستقيمة ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق، والبعد وإن كان من أحوال الضال، إلا أنه قد وُصف فعله مجازاً للمبالغة، كجدّ جدّه، ثم قوله تعالى: ﴿ أولئك في ضلال ﴾ دون أن يقول أولئك الضالون ضلالاً، للدلالة على تمكنهم فيه، تمكن المظروف في الظرف، وتصوير اشتمال الضلال عليه من كل جانب.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ في الأمم الخالية من قبلك ﴿ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي متكلماً بلغة قومه الذي هو منهم، أو بعث فيهم ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ ذلك الرسول ﴿ لَهُمْ ﴾ لأولئك القوم ما أمروا به، فيتلقَّوه عنه بيسر وسرعة، ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يخلق فيه الضلال، ويخذله فلا يلفظ به، لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ﴿ وَيَهْدِي ﴾ أي يخلق الهداية، أو يمنح الألفاظ ﴿ مِنْ يَشَاءُ ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين، والله الهادي والمضل، يفعل ما يشاء والانتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب على مشيئته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ﴾ تسلياً وتصبيراً للرسول ﷺ على أذى قومه، بذكر قصص بعض الرسل ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وهي كما قال مجاهد وعطاء: الآيات التسع ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي بني إسرائيل، والمعنى: أرسلناه وقلنا له: أخرج قومك ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ من الكفر والجهالة، التي أدتهم إلى أن يقولوا: «يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي بنعمائه وبلائه، كما روي عن ابن عباس واختاره الطبري، وعن أبي بن كعب أنه فسر الأيام في الآية

بنعم الله وآلائه، والالتفات بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل، للإيذان بفخامة شأنها، أي عظمهم بالترغيب والترهيب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في التذكير بها ﴿لَا يَأْتِي﴾ عظيمة تدل على وحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته تعالى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر، وقيل المراد لكل مؤمن، وإنما عبّر بذلك عنهم بذلك، تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن، الدال على ما في باطنه، وتخصيص الآية بالصبار الشكور، لأنه المنتفع بها، وتقديم الصبر لما أن الصبر مفتاح الفرج، المقتضي للشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَجِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته وقت إنجائه آباءكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَجِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ المراد بالعذاب ههنا غير المراد في سورة البقرة والأعراف، لأنه مفسر بالتذبيح والقتل هناك ومعطوف عليه التذبيح ههنا، وهو استعبادهم، واستعمالهم بالأعمال الشاقة ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ من حيث إنه إقدار الله تعالى إياهم، وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقال موسى أي اذكروا نعمة الله، واذكروا إذ تأذَّن ربكم وهو نعمة من الله عليهم، لما فيه من الترغيب

والترهيب، الباعثين على خير الدنيا والآخرة ﴿تَأَذِّن﴾ أي آذن إيداناً بليغاً، لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعّل من معنى التكلف أي أعلم إعلماً بليغاً ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم وقابلتم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة ﴿وَلَكِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وعصيتُموني ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فأعذبكم على الكفر عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين، أن يصرح بالوعد، ويعرّض بالوعيد، فلذا لم يقل لأعذبكم كما قال: ﴿لأزيدنكم﴾ وعذاب الكفر أما في الدنيا فسلب النعمة، وأما في العقبى فتوالي النقم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴿٨﴾ .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لعله عليه السلام قاله، عندما عين منهم دلائل العناد، وتيقن أنه لا ينفعهم التذكير ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا﴾ نعمه تعالى ﴿أَنْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة أيديه، وهو محمود تحمده الملائكة، بل كل ذرات العالم، كالتعليل لما ذكر، أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، حيث حرمت أنفسكم مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، فالله لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ  
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا  
أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا  
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ شروع في

الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية، أي ألم يسمعون ما جرى عليهم، ليتدبروا ما أصاب كل واحد منهم، فيقلعوا عما لهم عليه من الشرك، وينيبوا إلى الله عز وجل؟ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد المذكورين ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي إنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، لأنهم يدعون علمها، وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات، فبين كل رسول منهم لأمة طريق الحق، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها<sup>(١)</sup> ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي على زعمكم، وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا، كأنهم قالوا هذا جوابنا لكم، وليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق، والأيدي والرد مجاز عن الإشارة، أو وضعوا أيديهم على أفواههم، مشيرين بذلك للرسول أن يكفوا ويسكتوا ﴿وَإِنَّا لَنَى شَكِّ﴾ عظيم ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، وهو قلق النفس وعدم الاطمئنان، بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد في دعوة الرسل.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

(١) المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغة في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لما سمعوا كلام الرسل، عجبوا من ذلك وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك وضعوا أيديهم على أفواههم، كما يفعل ذلك من غلبه الضحك، فوضع يده على فمه.

﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ ﴾ منكرين عليهم ومتعجبين من مقاتلهم الحمقى ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكُّ ﴾؟ أي أنتم في شك في شأنه سبحانه، ووجوده، ووحدانيته، وهو أظهر من كل ظاهر؟ أي ليس في الله شك، وحيث كان مقصدهم الدعوة إلى الإيمان، وكان إظهار البينات وسيلةً إلى ذلك، لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ واقتصروا على ما هو الغاية القصوى، وهو الشك في وجوده تعالى، ثم عقبوا ذلك بالشواهد الدالة على الوحداية فقالوا: ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وما فيهما، على نظام أنيق شاهد على وجوده ووحدانيته، ثم نبهوا على عظم كرمه ورحمته فقالوا: ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا، ولا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ أي يدعوكم لأجل المغفرة ﴿ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضها، وهو ما عدا المظالم، وحقوق العباد، فإن الإسلام يجبهه دون مظالم العباد، ولم تجيء مع «من» إلا في خطاب الكافرين، وقال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وذلك للتفريق بين الخطابين فالمؤمنون تغفر لهم جميع ذنوبهم تفضلاً وكرماً ﴿ وَيُوحِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى، فلا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ﴿ قَالُوا إِنَّا نَتَزَّ ﴾ أي ما أنتم ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من الرسالة ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ أي أن تصرفونا بتخصيص العبادة لله تعالى ﴿ عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ عما استمر عليه آباؤنا من غير شيء يوجهه ﴿ فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يدلُّ على فضلكم، وعلى صحة ادعائكم النبوة؟ كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات، واقترحوا عليهم آية أخرى، تعثتاً ولجاجاً.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة معهم في أول مقالاتهم ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ أي يتفضل بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى، يعطيها من يشاء من عباده، بمحض الفضل، والبشرية غير مانعة لمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن قولهم: «ولكن الله منّ علينا» إلى ما في النظم الجليل، من التواضع منهم عليهم السلام ﴿وَمَا كُنَّا لِنَآءُ﴾ أي ما صحّ وما استقام ﴿أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة من الحجج الواضحة، فضلاً عن السلطان المبين، الذي اقترحوه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء كان، وإلا فلا ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة، وقصدوا به أنفسهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله، في الصبر على معاندتكم، ومما يدُلُّ على أنهم قصدوا أنفسهم قولهم:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾؟ أي أيُّ عذرٍ لنا أن لا نتوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجهه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَا﴾ أي أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه، الذي شرع له، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب، قالوا مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصْبِرَ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي ولنصبرن على أذاكم لنا بصنوف الأذى ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ﴾ خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثبت المؤمنون المتوكلون على الله، فمن توكل على الله كفاه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار، متوعدين ومهددين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم من الأوطان، أو عودهم في ملتهم، ولم يقنعوا بعصيانهم الرسل، والعود باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، أي لترجعن أنتم وأتباعكم إلى ديننا، والأنبياء لم يكونوا على دينهم قط، فإنهم نشأوا على التوحيد، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة، فالقوم ظنوا أنهم كانوا على دينهم، فلذا قالوا أو لتعودنَّ ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالك أمرهم عند تناهي عتوَّ المشركين ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أي قاتلاً لنهلكن المشركين المتناهين في الظلم والطغيان.

﴿ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِي ﴿١٤﴾ .

﴿ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ ﴾ أي أراضيهم وديارهم ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم، جعل الله عزَّ وجلَّ عقوبتهم لقولهم بإخراج الرسل، إخراجهم من الدنيا، وتوريث أرضهم وديارهم للمؤمنين ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك أمرٌ محققٌ ثابت ﴿ لِمَن خَافَ مَقَامِي ﴾ وهو الموقف الذي يقف فيه العباد، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِي ﴾ أي وعيدي بالعذاب، وفي الآية دلالة على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا ﴾ أي سألوا الله النصر والفتح على أعدائهم، والضمير للرسل عليهم السلام، أي استنصر الرسل وطلبوا من الله أن ينصر المحقَّ، ويهلك المضل ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ عات متكبر

عن عبادة الله سبحانه وطاعته ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، مباحٍ بما عنده، ففي الكلام إيجاز الحذف، أي استفتحوا ففتح لهم، وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم المعاندون، وإنما ذكر كل جبار عنيد موقع ضميرهم، ذمًا لهم، وتسجيلًا عليهم.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ من بين يديه، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَى﴾ عطف على مقدر كأنه قيل: يلقي فيها ويسقى ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ هو قيح أو دم مختلط، يسيل من أجساد أهل النار، عطف بيان لما أبهم أولاً، ثم بيّن تهويلًا لأمره، وتخصيصه بالذكر من عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، وأفظعه، وأشنعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ﴿١٧﴾

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه أي يشربه جرعة جرعة، لغلبة العطش، واستيلاء الحرارة عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه؟ بل يغص به فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحال ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي فتحيط به من جميع الجهات الست، أو من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره، وإبهام رجله، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت، عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما هو عليه، ففيه دفع ما يتوهم من الخفة، بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلود الأبدي في النار.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ صفتهم وحالتهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أعمالهم التي عملوها في وجوه البر، كصلة الأرحام، وعتق الرقاب، وقرى الأضياف، وغير ذلك ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ فنسفته وطيرته ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ريحه عاصف أي شديد قوي، وصف به زمانه - اليوم - للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، شبهه به أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً<sup>(١)</sup> ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لحيوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ذَلِكَ﴾ ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حسابانهم أنهم على شيء ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق، والصواب، فإنه الغاية في البعد عن طريق الهدى والرشاد.

﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ .

﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته والرؤية قلبية ﴿أَنَّ﴾ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿أَي﴾ ألم تعلم أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبسة بالحكمة الجليلة، والوجه

(١) مثل تعالى لأعمال الكفار، التي عملوها في الدنيا يتنغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، بمثل رمادٍ وهو التراب الناعم، عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً، فكما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، كذلك تذهب أعمال الكفار ضياعاً ودماراً.

الصحيح الدال على عظمة الخالق، يعني لم يخلقهما عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم خلقاً آخر، أعبد الله منكم وأطوع، ربُّ تعالى قدرته على ذلك، على قدرته على خلق السماوات والأرض، إرشاداً إلى طريق الاستدلال، فإنَّ من قدر على خلق الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلقٍ آخر بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق آخر مكانكم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعبٍ ولا عسير، بل هو سهل يسير، فإنه عزَّ وجل قادرٌ على جميع الممكنات.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّئَنَا اللَّهُ هَدْيَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله تعالى ومحاسبته، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقيق وقوعه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ أي الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي والعقل ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي لرؤسائهم الذين أغوهم وأضلوهم عن دين الله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل، والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أريد بالاستفهام التوبيخ والتفريع، والغناء بمعنى الفائدة، وضمَّن معنى الدفع، ولذا عدِّي بعن أي إنَّا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي بعض الشيء الذي حلَّ بنا؟ ﴿قَالُوا﴾ أي المستكبرون جواباً واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَّئَنَا اللَّهُ﴾ للإيمان ﴿هُدْيَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضلناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾ مما لقينا، جَزَع الرجل إذا ضَعْف عن حمل ما نزل به ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي مستوٍ علينا الجزعُ والصبر،

ولمَّا كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أي من منجى ومهرب من العذاب، والمحيصُ: المنجى والمهرب.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ  
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ  
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا  
أنتَ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ  
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي إبليس الذي أضل كلا الفريقين ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي أحكم وفرغ منه، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قام خطيباً في أشقياء من الثقلين. أخرج ابن جرير عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ وعداً حقاً، وعد من أطاعه الجنة، ومن عصاه النار، فوفاكم وأنجزكم ذلك ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي كذبتكم وأخلفتكم الوعد، جعل تبيين خلاف وعده، كالإخلاف منه وظهر كذبه ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من تسلط فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة ﴿ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي ﴾ أسرعتم إجابتي باختياركم ﴿ فَلَا تَلُمُونِي ﴾ بوسوستي فقد حدركم الله مني، وأخبركم عداوتي ﴿ وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، ولم تطيعوا ربكم، لمَّا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج، وليس مراد اللعين التنصل عن توجّه اللائمة إليه، بل بيان أنهم أحق بها منه، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان هو الذي يختار السعادة والشقاوة، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين ﴿ مَا أَنَا ﴾

بِمُصْرِحِكُمْ ﴿ أي بمغِيثِكُمْ من العذاب، يقال: استصرخني فأصرخته (١)، أي استغاثني فأغثته، وأصله من الصراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزة للسلب، كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِحٍ ﴾ بمغِيثي مما أنا فيه، وإنما تعرض لذلك للتذكير بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإغاثة ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ ﴾ اليوم ﴿ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي كفرت بالذي أشركتموني، وهو الله تعالى، لطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها ومعنى كفره بإشراكهم، تبرئه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف بالسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ (٢٣)

﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بإذن الله وأمره، والمدخلون هم الملائكة، ولَمَّا ذكر الله تعالى مآل الكفار، ذكر مآل أمر المؤمنين، من إدخالهم الجنة، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميرهم، مزيد اللطف بهم ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ أي تحييتهم الملائكة فيها بالسلام، أو الرب سبحانه يحييهم بالسلام، كما قال سبحانه: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ وهو مشتق من السلامة أي أنهم سلموا من آلام الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) الصارخُ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعونة، والمُصْرِحُ هو المغِيث. اهـ  
القرطبي ٣٥٧/٩.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف بيّنه ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها، لا أنه صيّر لها مثلها في الخارج كقولك شرف الأمير زيدا كساه حُلّة، وكونُ الشجرة طيبة، إما كونها طيبة المنظر، أو طيبة الرائحة، أو طيبة الثمرة، أو طيبة بحسب المنفعة، وإذا اجتمعت فيها هذه الأمور يحصل كمال الطيب ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها، وسمي الأعلى فرعاً لتفرعه عن الأصل، ولهذا أفرد، ويجوز أن يراد به الفروع، لأنه مضاف والإضافة تَرُدُّ للاستغراق، فكانه قيل وفروعها ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في جهة العلو.

﴿ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥) .

﴿ تُوْتِي أَكْلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه، والمراد بالشجرة المنعوتة النخلة وروي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة شبه الرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها، توتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فقال ﷺ: هي النخلة، فحكيتها لأبي فقال: يا بني لو كنتَ قلتها لكانت أحبَّ إليَّ من حُمُرِ النَّعَمِ»<sup>(١)</sup> وقيل: كلُّ شجرة مثمرة، طيبة الثمار، كالنخلة، والتين، والعنب، والرمان، ونحو ذلك، وأنت تعلم

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٩٩/٦ ورواه أحمد في المسند ١٢/٢ ومسلم رقم ٢٨١١ باب «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَخْلَةِ».

أنه إذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة «أن لا إله إلا الله» بهذه الشجرة المنعوتة، أن أصل تلك الكلمة، هو الإيمان الثابت في قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها من الأعمال الصالحة يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه، هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإن فيه تصوير المعاني العقلية، بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحسّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ٢٦ .

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر وتكذيب الحق، وما يعم كل كلمة قبيحة عند الله سبحانه ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ كمثل شجرة ﴿خَيْثَةٍ﴾ كالحنظل ونحوه ﴿أَجْتَنَّتْ﴾ اقتلعت من أصلها، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة وهي شخص الشيء كله ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قرينة منه ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ استقرار، والكلمة المشبهة هي الإشراك بالله سبحانه، فإن الكفر أول الآفات، ورأس الشقاوات، فخبثه لا يخفى، ليس له حجة ولا قوة، بل هو داحض غير ثابت.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ٢٧ .

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي تنبت بالحجة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، وهو قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزيغون إذا افتتنوا في دينهم، كما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر، الذي

هو أول منزل من منازل الآخرة عند سؤال منكر ونكير، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئِلوا عن معتقدهم هناك، ولا تُدهشهم الأهوال، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ وفي الآخرة: القبر<sup>(١)</sup> ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فلا يهتدون إلى الحق، فلا يثبتون في مواقع الفتن، والمراد بهم الكفرة، ووصفهم بالظلم باعتبار ظلمهم لأنفسهم، باختيار الضلال، فالمراد بالذين آمنوا المخلصون في الإيمان، والراسخون في الإيقان، كما ينبيء عنه التثبيت ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراض عليه، حسبما توجهه مشيئته، التابعة للحكم البالغة، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضوعين، من الفخامة، وتربية المهابة ما لا يخفى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة أي ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي شكر نعمته تعالى، بأن وضعوا موضعها ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً، أو بدلوا نفس النعمة كُفْرًا، فإنهم لما كفروها سُلِبَت منهم، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قَوْمًا بيته العتيق، ووسَّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم برسول الله ﷺ، فكفروا بذلك، ففُحِطُوا سبع سنين، وقُتِلُوا وأُسْرُوا، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة بعد الرفاهية والعزة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه من رواية أبي سعيد الخدري، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... وفي الآخرة﴾» وانظر فتح الباري على البخاري ٣٧٨/٨.

الذين ﴿ قال: هم كفار مكة ﴿ وَأَحْلُوا ﴾ أي أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه، يُقال: بَارَ الشيء يبور بَوْرًا هلك، وأصله فرط الكساد المؤدِّي إلى الفساد، كما قيل: كَسَدَ حتى فسد، عبَّرَ به عن الهلاك.

﴿ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان لها، وفي الإبهام، ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿ يَصَلَوْنَهَا ﴾ يقاسون حرها ﴿ وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴾ بس المقر جهنم مسكنًا ومستقرًا لهم.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ الفرد الذي ليس كمثلته شيء ﴿ أَدَادًا ﴾ أشباهاً وأمثالاً في العبادة والتسمية ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ قومهم الذين يشايعونهم ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الذي هو التوحيد، ليقوعوهم في ورطة الكفر والضلal ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تهديداً لأولئك المضلين الضالين ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات، التي من جملتها كفران النعم، واستتباع الناس في الضلال، وجعل ذلك متمتعاً به تشبيهاً له بالمشتبهات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ الأمر أمر تهديد، وهذا كقول الطبيب لمريض يأمره بالاحتماء فلا يحتمي، كل ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن المقصود منه التهديد، ليرتدع ويقبل ما يقول.

ثم إنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر عباده الصالحين، بالعبادة البدنية، والمالية وبطاعة الله ورسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً بهم، وتشريفاً لهم ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ومقول القول محذوف، دلّ عليه ﴿ يُقِيمُوا ﴾ أي قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيمون وينفقون ويفعلون بالأمر، لصدق إيمانهم، فهم متى أمروا امثلوا، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي خفية وجهرًا، والأحب في الإنفاق إخفاء التطوع، وإعلان الواجب، والمراد من الأمر حث المؤمن على الشكر لنعم الله عزّ وجل، بالعبادة البدنية والمالية، وترك الركون إلى متاع الدنيا، كما هو صنيع الكفرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصّر ما يتدارك به تقصيره أو يفتدي به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ ولا مخاللة أي صداقة فيشفع لك خليل .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أي أخرج به أنواع الحبوب والثمار، تعيشون به، وهو يشمل المطعوم، والملبوس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ بأن أقدركم على صنعها واستعمالها، بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته تعالى، ويندرج في تسخير الفلك تسخير البحر والرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم حيث تشربون منها وتسقون بها زروعكم .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ ﴾

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي دائمين في الحركة إلى انقضاء عمر الدنيا، وأصل الدأب العادة المستمرة، وتسخير هذين الكوكبين جعلهما منيرين، مصلحين ما نيظ بهما صلاحه، ولولا ذلك ما كان كون ولا حياة، ولا ليل ولا نهار، ولا مأكولات ولا حيوانات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم وفي إبراز كل من هذه النعم، في جملة مستقلة، تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيب على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر.

﴿ وَءَاتَنَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۖ ﴾

﴿ وَءَاتَنَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي أعطاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف، بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بما سألتموه، ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياج الناس إليه. أي أعطاكم من كل ما تحتاجونه، سئل أو لم يُسأل، حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي ما أنعم به عليكم والمراد به الجمع، كأنه قيل: وإن تعدُّوا نِعَمَ اللَّهِ ﴿ لَا تَحْصُوهَا ﴾ لا تحصروها ولا تطبقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية، وإن رمت العثور على حقيقة الحق، فاعلم أن الإنسان لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهية، لما استقرَّ له القرار، وما من فرد من أفراد الناس - وإن كان في أقصى مراتب الفقر - فهو بحيث لو تأملته لوجدته في نِعَمٍ لا تحدُّ، فإن كنت في ريب من ذلك، فتصوِّرْ مَلِكاً مَلِكاً أقطار العالم، وحاز جميع ما في الدنيا من الأموال، ثم قُدِّرْ أنه قد حُبِسَ عليه النَّفْسُ، أو

حُسِّسَ عليه البولُ، وأتاه الموت من كل مكان، أما يعطي ذلك بمقابلة نفسٍ واحد أموال الدنيا بجملتها؟ وهذا من الظهور ما لا يخفى على أحد، فاتضح أنه سبحانه يفيض علينا كلَّ آنٍ نِعْمًا لا تتناهى، سبحانه ما أعظم شأنك!! سبحانه ما أعظم سلطانتك!! ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ﴾ يظلم نفسه بأن يُعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كفارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها و(أل) في الإنسان للجنس، ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قول إبراهيم تأكيداً لما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جنایاتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة، وعصوا أباهم إبراهيم حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى، وسأله أن يجعلها بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، وتهوي قلوبُ الناس إليهم، فاستجاب الله دعاءه، وجعله حَرَمًا آمِنًا، يُجَبِّي إليه ثمراتُ كلِّ شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أي مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها أي اجعله من البلاد الآمنة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بَعْدْنِي وَإِيَّاهُمْ، وَأَصْلُ التَّجَنُّبُ جعلُ الشيء على جانب وفيه معنى الإبعاد، وهذا الدعاء مختصُّ بالمؤمنين، لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ والمرادُ هنا طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام، أي وثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد والإيمان ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلنا من الذين اجتنبوا عبادة الأصنام

فإن قيل: إن الأنبياء عليهم السلام معصومون، فما الفائدة في الطلب؟  
أجيب إنما ذُكر هذا هضماً لنفسه، وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله سبحانه  
في كل المطالب.

﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ  
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٦).

﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة،  
واستعدت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إلى الأصنام باعتبار السببية،  
لأنهن جمادات لا تعقل، وإنما نسب إليهن الإضلال، لأن الناس ضلوا  
بسببهن، فكانهن أضللنهم، كما تقول: فتنتم الدنيا وغرتهم أي افتتنوا  
واغترتوا بسببها، وهذا تعليل لدعائه، وصدَّرَ بالنداء، إظهاراً للاعتناء به،  
ورغبة في استجابته ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ من الناس فيما أَدْعُو إليه، من التوحيد  
والإسلام ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي هو من أهل ديني ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أي لم يتبعني،  
وعصى أمري في غير الشرك ﴿ فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له  
وترحمه، فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا  
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ  
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧).

﴿ رَبَّنَا ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة، والالتجاء إليه تعالى ﴿ إِنِّي  
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي أسكنت ذريةً من ذريتي، والمراد به إسماعيل عليه  
السلام وبنيه، وهذا الإسكان بعدما كان بينه وبين أهله ما كان، وذلك أن  
هاجر أم إسماعيل، كانت أمةً لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فلما  
ولدت إسماعيل غارت منها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة، فوضعها عند

البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى راجعاً فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب؟ فجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيّعنا، ثم رجعت وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الشئبة، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات المباركات ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فإنها حجريّة لا تنبت، ووصفه في ذلك دون «غير مزروع» للمبالغة، لأن المعنى غير صالح للزرع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الإضافة للتشريف، وسمي محرّماً لأنه عظيم الحرمة، حرّم الله التعرض له بسوء، فلم يزل مهاباً، تهابه الجبابرة في كل عصر، وسمّاه بيتاً باعتبار ما سيكون بعد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام كي، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمره بذكرك وعبادتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله. وهذا الحصر مستفاد من السياق، فإنه لما قال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أثبت أنه مكان عبادة، ونفى أن يكون إسكانهم للتجارة والكسب، مع ما في ﴿رَبَّنَا﴾ من الإشارة أن ذلك هو المقصود ﴿فَأَجْعَلْ آفَئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي أفئدة بعض الناس، و«من» للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم جميع الناس، وأهل فارس والروم ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً وتقبل نحوهم من البلاد الشاسعة، وأول آثار هذه الدعوة، ما روي أنه مرت رفقة من جُزهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا: إن هذا الطائر يحوم على الماء، فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئت كنا معك وأنسناك، وتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا، فأذنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبَّ إسماعيل فتزوج منهم، كما هو المشهور ﴿وَأَرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك، يعني وارزقهم كما رزقت سكان القرى، أصحاب الماء والزرع، وإنه ليجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد ﴿لَعَلَّهُمْ

يَشْكُرُونَ ﴿ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله آمناً يُجِيبِي إليه ثمرات كل شيء، ولا يخفي ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستئزال الرحمة، ولذا منَّ اللهُ عليه بحسن القبول، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي للاستعانة بها على أداء العبادات.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّنُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّنُ ﴾ أي تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع، وضمير الجماعة ليس مجرد علمه تعالى بما يخفي وما يعلن، بل بجميع خفايا الملك والمَلَكُوت، وقد حَقَّقَه بقوله: ﴿ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، لما أنه عزَّ وجل عالم بالذات، فما من أمر كائناً ما كان إلا وجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؟.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أي مع كبر سني، ويأسي عن الولد، فعلى بمعنى «مع» والتقيد بذلك استعظماً للنعمة، واستظهاراً لشكرها ﴿ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحق لمائة واثنتي عشرة سنة، وهذه الرواية عن ابن عباس ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ أي خالقي ومالك أمري ﴿ لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أي مجيب الدعاء، من قولك:

سمع الملك كلام فلان، إذا تلقاه بالقبول، وفيه إشعار بأنه عليه السلام دعا ربه، وسأل منه الولد، فأجابه ووهب له سؤاله، حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجل النعم، وأحلاها.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أي محافظاً عليها، مقيماً لها على الوجه الذي يرضيك، وتوحيد الضمير للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة أيضاً ولا يفرط فيها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أي استجب دعائي، وتقبل عبادتي.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين، مما لا يسلم البشر منه ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أي لأمي وأبي، وكانت أمه - على ما روي عن الحسن - مؤمنة، وأما استغفاره لأبيه، فقد قيل: إنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه، وقالت الشيعة: إن والديه كانا مؤمنين، ولذا دعا لهما، وأما الكافر فالمراد به عمه، وهو قول من لم يدرك النصوص القرآنية، ولم يعرف السنة النبوية ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من ذرية إبراهيم وغيرهم، وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق، ويقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، وفي هذا الدعاء بشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لا يردُّ دعاء خليله.

﴿ وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أي لا تظنن يا محمد أن الله ساهٍ وغافل عن أفعال الظلمة، وفيه

تسلياً للمظلوم، وتهديد للظالم، والمراد بالظالمين كفار مكة، ممن عدت مساوئهم، أو جنس الظالمين، وهم داخلون في الحكم، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ ﴾ أي يؤخر عقوبتهم، وإنما أسند التأخير إليهم لتحويل الخطب، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب وتأخيره للتشديد والتغليظ ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ هائل عسير رهيب ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تفر في أماكنها، من هول ما ترى، يقال: شَخَصَ الرجلُ بصره إذا فتح عينه لا يطرف، وهذا إنما يكون من شدة الهول والفرع.

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ (٤٣)

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، بالخوف والذل، وأصل الهَطْعُ: هو الإقبال على الشيء، هَطَعَ الرجل من باب فَتَحَ، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، من غير التفات إلى شيء<sup>(١)</sup> ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي خالية من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبه هواءٌ أي لا قوة ولا رأي فيه، وهذا يكون وقت الحساب، وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور.

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُنْ أُولَىٰ أَلْسِنَتٍ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ (٤٤)

(١) هذا هو المشهور عند أهل اللغة لمعنى الإقناع، وهو أن يرفع رأسه مديماً للنظر، وقال المبرد: «يقال: أقنع الرجل إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعاً، فهو من الأضداد، قال: ويجوز أن يرفع رأسه مديماً للنظر، ثم يطأطئه خضوعاً وذلاً». اهـ وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا ٣/٥٣٩.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خطاب لسيد الرسل ﷺ والمراد بالناس: الكفأر المعبّر عنهم بالظالمين، والعدول من الإضمار، للإشعار بأن المراد هو الزجر، عما هم عليه من الظلم، شفقة عليهم، أي خوفهم ذلك اليوم الرهيب، وقيل: الناس جميعاً، فإن الإنذار عام كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب أي فيقولون، والعدول عنه للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأن ما لقوه إنما هو لظلمهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أخرجنا من الدنيا، وأمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿مُحِبِّ دَعْوَتِكَ﴾ أي نجب الدعوة إليك، وإلى توحيدك ﴿وَنَسِجِ الرُّسُلِ﴾ أي فيما جاؤوا به أي تدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم تويحاً: ألم تؤخروا في الدنيا؟ وألم تكونوا أقسمتم بألستكم وحلفتهم بطراً وجهلاً ﴿مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ مما أنتم عليه، من التمتع بالحظوظ الدنيوية، وأنكم لا تنتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، والغرض أنهم ينكرون البعث بعد الموت، ويقسمون على أن لا حساب ولا جزاء. ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأهل النار خمس دعوات، يجيبهم الله تعالى في أربع منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: الأولى يقولون: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ثم يقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم جلّ شأنه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّجِبْ دَعْوَتِكَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوْلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَدَّكُرُ فِيهِ مَن تَدَّكُرُ؟﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ فيجيبهم الله عزّ وجل: ﴿اٰخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ فلا يتكلمون بعدها». اللهم إنا نعوذ بك من غضبك، ونلوذ بكفك من عذابك، ونسألك التوفيق للعمل

الصالح، في يومنا لغدنا، والتقرب إليك بما يرضيك، قبل أن يخرج الأمر من يدنا، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾.

﴿ وَسَكَنْتُمْ ﴾ من السكنى بمعنى التَّبَوُّءِ والاستيطان، أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناكم، فهلاً اعتبرتم بما جرى عليهم!! ﴿ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود سائرين سيرتهم في الظلم والفساد ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ بينا لكم في القرآن العظيم وعلى السنة الأنبياء ما حلَّ بهم، فلم تعتبروا منهم، فأنتم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكرؤا في إبطال الحق، وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ العظيم وجاوزوا فيه كل حدٍّ محدود، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه، وتسميته مكرأ لكونه بمقابلة مكرهم ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ في العظم والشدة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وعبر عن ذلك بكونه معداً لإزالة الجبال عن مقارها، لكونه مثلاً في ذلك، لشدة المكر، وضخامة السعي في الإجمام، فكأنهم بمكرهم الخبيث يكادون يقتلعون الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو  
 أَنْتِقَامٍ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ ﴾ تثبت له ﷺ على ما هو عليه،  
 من الثقة بالله سبحانه، والتيقن بإنجاز وعده تعالى، بتعذيب الظالمين، كما  
 يفصح عنه الفاء، لا وعده بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ  
 عَزِيزٌ ﴾ أي غالبٌ لا يُماكر، وقادر لا يُدافع ﴿ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ لأوليائه من  
 أعدائه .

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ  
 الْقَهَّارِ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي ينجزه ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ ﴾  
 ﴿ وَالسَّمَوَاتِ ﴾ عطف على الأرض، وتقديره والسموات غير السموات  
 والتبديل قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، والآية الكريمة  
 ليست بنص في أحد الوجهين، روى البخاري عن سهل بن سعد قال: قال  
 رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ عَفْرَاءٍ - يعني  
 شديدة البياض - كقرصة النقي - أي الخبز النقي في اللون - ليس فيها عَلمٌ  
 لأحد»<sup>(١)</sup> أي علامة من الأبنية والزراعة والمسكن ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي الخلائق  
 من أجدانهم ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وذكره بالوصفين،  
 للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غلاب لا  
 يُغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٢٣/١١ ومسلم رقم ٢٧٩٠ في البعث  
 والنشور .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قرن بعضهم مع بعض مع الشياطين، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أيديهم وأرجلهم تُربط إلى رقابهم بالأغلال، كحال الأشقياء في الدنيا يربطون بالسلاسل والقيود ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود، جمع صَفْد، وَالصَّفْدُ: القيدُ، وقيل الغُلُّ، وأصله الشَّدُّ.

﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ سَرَابِيلُهُمْ ﴾ قمصانهم جمع سربال ﴿مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ وهو أسود متتن تشتعل فيه النار بسرعة، وهو إن سال بنفسه يُقال: زفتُ وإن كان بالصناعة فقطران، ففي سراويلهم تشبيه بليغ، وذلك أن المقصود أنه تُطلى جلودُ أهل النار بالقطران، حتى يعود طلاؤه كالسراويل، وذلك ليجمع عليهم ألوان العذاب: لذعه، وحرقه، ومنتنه، واللونُ الموحش على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكلُّ ما وعد الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تعلقوا وتحيط بها نار جهنم، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم، التي خلقت لأجله، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي الله ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة بقريئة المقام ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، جزاءً وفاقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأنٌ عن شأن، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان، وعن ابن عباس المراد سريع الانتقام.

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾ .

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن وما فيه من العظة ﴿ بَلَّغٌ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لجميع الخلق من إنس و جن ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ بهذا البلاغ ﴿ وَيَلْعَلُوا ﴾ بالتأمل فيه من الدلائل الواضحة، التي هي إهلاك الأمم، وإسكان الآخرين مساكنهم ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ ﴾ لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فيرتدعوا عما يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار، وفي تخصيص التذکر بأولي الأبواب، إعلاء لشأنهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والأحكام، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، إنه سمیع مجيب الدعاء .

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

\* \* \*